بين الذكرى والعبرة

معجزة الإسلام الخالدة

للأستاذ محمد عزة دروزة

[شعب يظهر على شعوب، ودين يعلو على أديان، وحضارة تنزو حضارات ، وقوة معنوية تزلزل الأرض وتهد الجبال]

يعجب كثير من الناس كيف استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يفتح بفئة قليلة من المهاجرين والأنصار الحصونَ التي كانت حول المدينة ومكة ؛ وأن يظهر بهم على أقيال الجزيرة العربية ورجالاتها ، وعلى عقائدها وعاداتها ؛ وأن يرفع بهم في غيابة الجهل ، وضلال العقل وحيرة الإنسانية ، لواء الحق والفضيلة ، والخير والرشاد ؛ فينشر في أرجاء الجزيرة ، بهذه الفئة الصغيرة ، هدى السماء ، وشريعةَ التوحيد ، ويأتيه أهلُها طائعين ، يدخلون في دين الله أفواجاً ؛ ثم كيف استطاع أصحابه بعده أن يفتحوا بهؤلاء دولَ العالم القديم : فارس والروم وبلاد السند ومصر وأفريقية والأندلس ... وقد كانوا أقلَّ عدة ، وأضعف جنداً ، وأقل دراية بفنون الحرب ، ودربة على أساليب القتال ـ من أمة كفارس والروم .

يعجبون من شأن هؤلاء المسلمين الأولين ، لقد كانوا بين تلك الدول والشعوب ، وهذه الحضارات والمدنيات ، كالشعرة البيضاء في فرس بهيم ، وكالطفل الصغير يصارع شجاعاً جباراً .

ولكني لا أعجب عجبهم ؛ بل أعجب كيف لم يفتحوا الأرض جمعاء ، ثم يحاولوا بعد ذلك فتح السماء ؟

كيف أعجب من ذلك ؟

لعلي أغفل قانون الكثرة ، والقوة المادية ، والفنون الحربية لعلي أغفل البروج المشيدة ، والحصون الشامخة ، والعساكر والذساكر ، والمدن والذخائر ، والقوة والمنعة ، والعزة والشوكة ، والعلم والرأي ، والفن والتدبير ...

لا ، لست أغفل شيئاً من هذا كله ، فقد جعلت لكل أمر قدراً ؛ بيد أني لم أغفل القوة المعنوية ، فقدرتها حق قدرها ، ووازنت بينها وبين كل ذلك ؛ فرأيتها ترجح بها كافة .

كانت القوة المعنوية في جانب ، وكانت القوة المادية في آخر

تاركين الأسانيد ، أو ليبدأوا بقراءة مختصر البخاري المسمى « مختصر الزبيدي » المحذوف منه الأسانيد الطويلة والأحاديث المكررة، ثم ليرجعوا بعد ذلك إلى البخاري نفسه إذا شاءوا، إذن لرأوا العجب العجاب من فصاحة العربية وبيانها إن كانوا طلاب فصاحة وبيان ، ولفقهوا من أحكام الدين وروحه ما لا يفقهه أو يعرفه إلا الذين استقوا من هذا الورد العذب الفياض ، وكل ذلك في غير كلفة أو عناء

ثم القرآن ! لماذا لا يقرأ الشباب الإسلامي القرآن ؟ لماذا لا يجعلون لأنفسهم حصة ولو قصيرة يقرأونها من القرآن كل يوم ؟ لماذا لا يمضي المسلم يقرأ من القرآن كل يوم شيئاً يسيراً حتى يتم القرآن كله في الزمن الذي يتمه فيه ، قصر أو طال ؟ إن القرآن كلام الله عز وجل ، حفظه الله للمسلمين وللانسانية كلها من التحريف والتغيير رحمة للناس ، فهل يغفل الشبان عن كلام ربهم سبحانه فلا يقرأونه وهم يقبلون على دراسة كلام الناس ؟ ليقرأوا القرآن ـ فالقرآن سهل يسره الله للذكر ـ وإذا لم يفهموا كلمة منه فمندهم القواميس ، وإذا لم يفهموا آية فليسألوا عنها أهل البصر بالدين . إن فعلوا — وحياتهم ونجاتهم في أن يفعلوا — فسيشعرون ، إذا قرأوا القرآن وتدبروه بطمأنينة نفس واطمئنان قلب لا يجدها من لا يقرأ القرآن

ليقرأ المسلمون القرآن والحديث وسيرة الرسول وتاريخ الخلفاء الراشدين ، عندئذ لا يخشى المسلمون على شبابهم فتنة ، ولا تعلق بنفوسهم شبهة ، ولا يغلب الإسلامَ على قلوبهم غالب . عندئذ يستطيعون أن يقوموا بحق الدين بإحسان الدفاع عنه والعمل به ، ويعرفون أي نعمة أنعم الله بها عليهم وعلى الإنسانية كلها حين أرسل صاحب الهجرة صلوات الله عليه رسولاً منه إلى الناس .

محمد أحمد الغمراوي

وكان من الحتم أن تتغلب القوة المعنوية على كل شيء عداها ...

كان فى هذه الفئة القليلة من المسلمين قوة معنوية ، بعثها فيهم دينهم ، وأججها فى صدورهم نبيهم ، فأتت أُكلها كل حين بإذن ربهم ، وظهرت بها معجزات الإسلام الخالدة على يد هؤلاء البواسل الأرواح حتى فتحت أرضاً ، ونشرت ديناً ، وفرضت لغة على هؤلاء الأقوياء الظاهرين فى الأرض ، ثم بعثت الحضارة والمدنية والثقافة والعرفان فى الشعوب جميعاً

إنه لخليق بالباحث أن يتبين هذه القوى المعنوية التى كانت تخفق بها قلوب المسلمين ، والتى أتت بهذه المعجزات الباهرة الخالدة بعد قليل من السنين

لقد فتشت عنها ، وبحثت عن مصادرها ومظاهرها ، فرأيتها تتجلى فيما يأتى :

١ — الإيمان

آمن المسلمون بشريعة الإسلام ؛ وآمنوا بأنهم على حق فى عقائدهم وآرائهم وأعمالهم ، والناس جميعاً على باطل ، ومن حق هذه العقائد الحقة ، والآراء الحقة ، والأعمال الحقة ، أن تعم البشر وأن يؤمن بها الناس جميعاً ؛ وآمنوا بأنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الإنسانية السعيدة على أسس العدالة والحق والسلام . لقد آمنوا بأنهم مصلحو البشر ، وهداة الكون ، وأنهم إن مُكن لهم فى الأرض بثوا فيها هدى ونوراً وعدلاً ، وأنقذوها من يد الظلم والوحشية ، وحرروها من استبداد الطغاة وقسوة القساة ، وغطرسة المتزعمين والمتكبرين « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »

وآمن المسلمون مع ذلك بأنهم منتصرون فائزون ، لأنهم على حق ، والحق لا بد ظافر منصور ، يستوى فى درك ثمرة النصر الأموات والأحياء ، فكل موقعة تقع ، وكل حرب تشبّ نارها ، هم فيها الرابحون ، وأعداؤهم هم الخاسرون ، فالمجاهدون من المسلمين إما أن يُقتلوا أو يَقتلوا ، فمن قُتلوا فلهم الفوز بالسعادة الآخرة الباقية ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، ومن قَتلوا فلهم النصر والبقاء فى الأرض ، والعزة والدولة

لقد غرس هذا الإيمانَ المتشعب النواحى فى نفوس المسلمين كتابُهم الحكيم ، ورسولهم الكريم . بعث فيهم الله روح القوة والرجولة ، والإباء والبطولة ، ووعدهم بالنصر المؤزر والفوز المبين « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، وزاد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الروح فيهم اشتعالاً بقوله وفعله . أفلم تسعَ قريش إلى عمه برجالاتها ووجوهها يناشدونه البقيا على الرحم ، والحفظ للجوار ، وكفّ محمد عن تسفيه أحلامهم والسخرية بأصنامهم ، فطلب أبو طالب من ابن أخيه أن يبقى عليه وعلى نفسه وألا يحمّله ما لا يطيق من عداوة قومه ، وخصومة أرومته ، فثار هذا الداعى الكريم ، ونطق هذا الروح العظيم : « يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وكان هذا القولَ الفصل بين قريش وبين محمد الرسول الكريم ، وضرب بهذا أروع مثل للأجيال السابقة واللاحقة

وقبس المسلمون هذه الروح ، فتجلت فى أسارير وجوههم ، ورسمت على صفحات قلوبهم ، وبدت فى كلامهم ، وفى أفعالهم ، كأنها الشهاب الثاقب ، أو الصبح المبين

فهذا رسول الله يستشير المسلمين فى محاربة قريش وقد خرج للقائهم فى غزوة بدر الكبرى ، فيقول : « أشيروا علىّ أيها الناس » . فينطق سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله » . فقال : « أجل » . فقال : « يا رسول الله ، لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك ، فسر على بركة الله »

وهذا زيد بن الدثنة يرسله النبى صلى الله عليه وسلم فى رهط من الصحابة مع وفد من العرب ليقرئوهم القرآن ويعلموهم شرائع الإسلام ؛ فيغدر هؤلاء الأعراب فى الطريق بزيد وأصحابه ، يقتلون بعضاً ويأسرون آخرين ؛ ثم يبيعون زيداً لقريش لتقتله بدل من قتل من رجالها بيد المسلمين ؛ ويقول له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد ، أتحبُّ أن محمداً عندنا الآن فى مكانك تُضرب عُنقه وأنك فى أهلك ؟ فيجيبه زيد : والله

ما أحبُّ أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيــه تصيبه شوكة تؤذيه وأنّى جالس فى أعلى

هؤلاء هم المسلمون ، آمنوا فلم يقف فى طريقهم شىء فى الأرض ، وساروا كالسيل العرم لا ترده ســدود ولا عقبات ، فُتِنوا فى دينهم وعذبوا وُنكل بهم وشردوا فى الأرض وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فما وهنوا ولا استكانوا ولا ذلوا ولا أخلدوا إلى الأرض ، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً

٢ — الاتحاد والألفة

وترى القوةَ المعنوية فى اتحاد المسلمين الأولين وتوادهم ، كما رأيتها فى إيمانهم ويقينهم ، فقد اتحدت قلوبهم ، وتحابت نفوسهم ، وصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وأصبح المسلمون جميعاً جسماً واحداً ، سرت فيه روح واحدة قوية ، فكان يشعر بشعور واحد ، ويفكر بفكر واحد ، إذا اشتكى عضو منه تألم له سائر الأعضاء

وقد بلغ من ذلك الاتحاد المتين والمحبة الصادقة أن آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حين نزل المدينة ليُذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والوطن ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فكان الأنصارىُّ يقسم ماله بينه وبين المهاجر، ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة

وقد ضرب المسلمون فى هذا السبيل أبلغ الأمثال للأمم التى تصبو إلى المجد والسؤدد ، فكان عطف بعضهم على بعض ، ومواساة الغنى للفقير ، والبرىء للمريض ، وتوقير الصغير للكبير ، وحنان الكبير على الصغير ، كان كل ذلك مضرب الأمثال فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولا يزال ذكراً جميلاً لهؤلاء الأمجاد الأبطال ، والأجواد السروات الغطاريف

أين نحن من هؤلاء ؟ وأين الأرض من السماء ؟ لقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا إيمانهم، وبددوا اتحادهم وألفتهم، فتفرقوا شيعاً، وتمزقوا بدداً، فضعفوا عن كثرة، وذلوا بعد هذه العزة الرفيعة المنيعة

فإذا شاء المسلمون أن يعود لهم مجدهم الباذخ وعزهم التليد ، فليبحثوا عن إيمانهم الذى فقدوه، وعن اتحادهم الذى بددوه، وعن ألفتهم التى أضلوها، وليكلوا أنفسهم بهذا تَعُدْ الذلة عزة، ويصيرُ الضعف قوة ، وترجع إليهم العظمة الدائرة ، والسؤدد الدارس

ليؤمنْ رجال الدين أنفسُهم كإيمان السالفين ، إيمــان قوة وعزم ، لا إيمان ضعف وذلة ؛ فمجرد التصديق لا ينقل قدماً ولا يحرك ساكناً . إنما الإيمان هذه الحركة المتقدة، والنار الملتهبة، والحمية للحق ، والمحبة للبشر ، والإخلاص لله، والغيرة أن تنتهك حرماته ، وتستباح محارمه، وتعصى أوامره؛ إنما هو العمل على أن يأخذوا بأيدى الناس من الظلام الدامس إلى النور المبين ... ومتى عاد هذا الإيمان إلى أهل الدين أنفسهم أعادوه إلى الناس جميعاً

... وإذا أردنا الألفة والمحبة — لنستعيد الماضى المجيد ، ونؤسس المستقبل الجديد ، على عبر اليوم وعظات الأمس — فلننظر بماذا ألف الإسلام بين قلوب أصحابه ، وبماذا غرس فيها المحبة والإخاء ؛ لقد جمع الإسلام بين قلوب المسلمين بنزع أسباب الفرقة منهم . كان العرب قبائل متعددة كل قبيلة وحدة برأسها ، يتعصب المرء لقبيلته ، وتعادى كل قبيلة الأخرى ، فكان بأسهم بينهم شديداً ، وحطموا أنفسهم بأيديهم ، ووأدوا سؤددهم بلجاجهم فى الخصومة والفرقة ، وأضعف بعضهم بعضاً فضعف الجميع . ثم جاء الإسلام فوسع أفقهم الضيق ، وبعد أن كان المرء يرى نفسه فرداً من قبيلة ، أصبح يرى أنه فرد من أمة ، ورأى الجميع أنهم أعضاء من أسرة أوسع ، هى أسرة الإسلام ؛ وخاف الإسلام أن يعودوا إلى ما كانوا عليه أشلاء ممزقة وقبائل متفرقة ، فقسا أعظم القسوة على من يعيد روح التعصب إلى القبيلة جذعة ، وعد هذا ذنباً خطيراً وإثماً كبيراً

فلنتبع المنهج الذى ألف به الإسلام بين المسلمين ، ولنطبّق سياسته الحكيمة الرشيدة من جديد ، فسترون المعجزة تتجدد ، والرجاء يتحقق، والحياة تبسم لنا، والمجد يصافحنا بعد عبوسها وجفائه

لست خيالياً أسعى إلى توحيد المسلمين جميعاً قبل اتحاد الأمة الواحدة منهم ، فأطلب الكثير وقد عجزت عن القليل ، وأطلب الفرع مضيعاً الأصل

كل أمة من الأمم الإسلامية قد قُطِّعت أحزاباً ، وفرّقت شيعاً، ففى مصر لا يتحد المصرى ، كل يرى نفسه فرداً من حزبه ، قبل أن يرى أنه فرد من أمته ، وفى الأمم الشرقية الشقيقة كما فى مصر من الفرقة والانقسام .